جوانب من حياة سعيد النورسي

الأستاذ إحسان قاسم الصالحي

مدير مركز بحوث رسائل النور

ولد سعيد النورسي سنة ١٢٩٣هـ (١٨٧٦م) في قرية (نورس) التابعة لولاية بتليس شرقي الأناضول. وتتلمذ على أخيه الكبير «**الملاعبدالله**» واقتصرت دراسته في هذه الفترة على الصرف والنحو، ثم بدأ ينتقل في القرى والمدن بين الأساتذة والمدارس، ويتلقى العلوم الإسلامية من كتبها المعتبرة بشغف عظيم، يرفده ذكاؤه المشرق، الذي اعترف به أساتذته جميعهم بعد إمتحانات صعبة، كان يجريها له كل منهم، واجتمع له مع الذكاء قوة الحافظة، إذ درس وحفظ كتاب «جمع الجوامع» في أصول الفقه في أسبوع واحد.

ولم تلبث شهرة هذا الشاب أن انتشرت بعد أن فاق في مناقشاته علماء منطقته جميعاً، فسموه «**سعيد المشهور**». ثم ذهب إلى مدينة «تللو» حيث اعتكف مدة في إحدى الزوايا، وحفظ هناك القاموس المحيط للفيروزابادي إلى باب السين.

وفي سنة ١٨٩٢م ذهب «الملا سعيد» إلى «ماردين»؛ حيث بدأ يلقي دروسه في جامع المدينة ويجيب عن أسئلة الناس، فَوُشي به إلى الوالي فأصدر أمراً بإخراجه، وسيق إلى «بتليس». فلما عرف واليها حقيقة هذا الشاب العالم ألحّ عليه أن يقيم معه، وهناك وجد الفرصة سانحة لمطالعة الكتب العلمية، لاسيما علم الكلام والمنطق وكتب التفسير والحديث الشريف والفقه والنحو، حتى بلغ محفوظه من متون هذه العلوم نحو ثمانين متناً.

وفي سنة ١٨٩٤م ذهب إلى مدينة «وان» وانكبّ فيها بعمق على دراسة كتب الرياضيات والفلك والكيمياء والفيزياء والجيلوجيا والفلسفة والتاريخ؛ حتى تعمق فيها إلى درجة التأليف في بعضها فسمّي بـ«بديع الزمان» إعترافاً من أهل العلم بذكائه الحاد وعلمه الغزير واطلاعه الواسع.

وفي هذه الأثناء نُشر في الصحف المحلية أن وزير المستعمرات البريطاني «غلادستون» قد صرّح في مجلس العموم البريطاني وهو يخاطب النواب قائلاً: «مادام القرآن بيد المسلمين فلن نستطيع أن نحكمهم، لذلك فلا مناص لنا من أن نزيله من الوجود أو نقطع صلة المسلمين به»، زلزل هذا الخبر كيانه وأقضّ مضجعه فأعلن لمن حوله: **«لأبرهنن للعالم بأن القرآن شمس معنوية لا يخبوا سناها ولا يمكن إطفاء نورها»**.

فشد الرحال إلى إستانبول عام ١٩٠٧م، وقدّم مشروعاً إلى السلطان عبد الحميد الثاني لإنشاء جامعة إسلامية في شرقي الأناضول، أطلق عليها اسم «مدرسة الزهراء» –على غرار الأزهر الشريف– تنهض بمهمة نشر حقائق الإسلام وتدمج فيها الدراسة الدينية مع العلوم الكونية الحديثة وبإمتزاجهما تتجلى الحقيقة، وبإفتراقهما تتولد الحيل والشبهات في هذا، والتعصب الذميم في ذاك»[1].

وكانت شهرته العلمية قد سبقته إلى هناك فتجمع حوله الطلبة والعلماء يسألونه وهو يجيب في كل فن بغزارة نادرة. فاعترف له الجميع بالإمامة وبأنهم لم يشاهدوا في علمه وفضله أحداً، حتى أن أحدهم عبّر عن إعجابه الشديد بعد أن اختبره اختباراً دقيقاً، قال: «إن علمه ليس كسبياً، وإنما هو هبة إلهية، وعلمٌ لدنيّ».

وفي سنة ١٩١١م ذهب إلى بلاد الشام، وألقى خطبة بليغة من على منبر الجامع الأموي دعا فيها المسلمين إلى اليقظة والنهوض، وبيّن فيها أمراض الأمة الإسلامية وسُبل علاجها، ثم رجع إلى استانبول وعرض مشروعه بخصوص الجامعة الإسلامية على السلطان «رشاد» فوعده السلطان خيراً، وفعلاً خصص المبلغ وشرع بوضع الحجر الأساس للجامعة على ضفاف بحيرة «وان»، غير أن الحرب العالمية الأولى حالت دون إكمال المشروع.

وعلى الرغم من معارضة سعيد النورسي لدخول الدولة العثماني الحرب، فإنه حالما أُعلنتّ اشترك هو وطلابه في الحرب ضد روسيا القيصرية المهاجمة من جهة القفقاس، وعندما دخل الجيش الروسي مدينة «بتليس» كان بديع الزمان يدافع مع طلابه عن المدينة دفاعاً مستميتاً، حتى أنه جرح جرحاً بليغاً، وأسر من قبل الروس

---

[1] صيقل الإسلام، ص ٤٢٨.

وسيق إلى معتقلات الأسرى في سيبيريا. وفي الأسر استمر على إلقاء دروسه الإيمانية على الضباط الذين كانوا معه والبالغ عددهم «٩٠» ضابطاً، ثم هرب من الأسر بأعجوبة نادرة وبعناية ربانية واضحة. ومرّ في طريقه بوارسو وألمانيا وفينا. وعندما وصل إلى استانبول منح وسام الحرب، واستقبل إستقبالاً رائعاً من قبل الخليفة وشيخ الإسلام والقائد العام وطلبة العلوم الشرعية. وكلفته الدولة بتسنّم بعض الوظائف، رفضها جميعاً إلاّ ماعينته له القيادة العسكرية من عضوية في **«دار الحكمة الإسلامية»**، التي كانت لا توجه إلاّ لكبار العلماء، فنشر في هذه الفترة أغلب مؤلفاته باللغة العربية منها: تفسيره القيّم **«إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز»**، الذي ألفّه في خِضَمّ المعارك، و**«المثنوي العربي النوري»**.

وبعد دخول الغزاة إلى إستانبول أحس النورسي أن طعنة كبيرة وجهت إلى العالم الإسلامي، ولذلك شمر عن ساعد الجد، فبدأ بتأليف كتابه **«الخطوات الست»** هاجم فيه الغزاة بشدة، وأزال دواعي اليأس الذي خيّم على كثير من الناس. ولشهرته الواسعة وجهاده المتواصل دعي إلى أنقرة عدة مرات، فتوجه إليها سنة ١٩٢٢م، حيث استقبل في محطة القطار بحفاوة من قبل أركان الدولة. ولكن سرعان ماخاب ظنه بمن دعوه، إذ وجد أن معظمهم لا يؤدون الفرائض الدينية، فوجّه إلى المجلس النيابي (مجلس المبعوثان) خطاباً مؤثراً إستهلّه بـ: أيها المبعوثان إنكم لمبعوثون ليوم عظيم، وهناك عرض أيضاً مشروع إنشاء الجامعة الإسلامية فلقي القبول، إلاّ أن ظروفاً سياسية حالت دون إكمال المشروع.

في سنة ١٩٢٣م توجّه بديع الزمان إلى مدينة «وان»، واعتزل الناس في جبل «أرَك» القريب من المدينة طوال سنتين متعبداً ومتأملاً. ورغم ذلك لم ينج من شرارة الفتن والإضرابات فنفي مع الكثيرين إلى «بوردو»، ووصل إليها في شتاء سنة ١٩٢٦م. ثم نفي وحده إلى ناحية نائية وهي «بارلا» جنوب غربي الأناضول، فظن أعداء الإيمان أن سيقضي عليه، ويخمد ذكره ويطويه النسيان ويجف هذا النبع الفياض.

ولكن الله سبحانه وتعالى لطيف بعباده، فرعاه بفضله وكرمه، حتى غدت «بارلا» مصدر إشعاع عظيم لنور القرآن، إذ ألّف الأستاذ النورسي هناك معظم «رسائل النور». وتسربت هذه الرسائل عن طريق الإستنساخ اليدوي، وانتشرت من

أقصى تركيا إلى أقصاها، إذ ماكان الأستاذ النورسي يساق من منفى إلى آخر، ويزج في السجون والمعتقلات في عديد من ولايات تركيا طوال ربع قرن من الزمن، إلاّ وقيض الله من يستنسخ هذه الرسائل، وينشر هذا الفيض الإيماني، حتى أيقظت روح الإيمان الراكدة لدى أهل الإيمان، وأرستها على دعائم علمية ومنطقية في غاية البلاغة بحيث يفهمه العوام ويتزود منه الخواص.

وهكذا استمر الأستاذ النورسي على تأليف رسائل النور حتى سنة ١٩٥٠م فأصبحت في أكثر من (١٥٠) رسالة، جمعت تحت عنوان «كليات رسائل النور» التي تضم أربع مجموعات أساسية هي: «الكلمات ، المكتوبات، اللمعات، الشعاعات». وغيرها من المجموعات التي لم تتيسر لها إن ترى طريقها إلى المطابع إلا بعد سنة ١٩٥٤م. وكان الأستاذ النورسي يشرف بنفسه على الطبع حتى كمل طبع الرسائل جميعها.

ونورد النص الآتي لينير لنا جانباً من أسلوب رسائل النور المتميز، عن الأساليب المتبعة الأخرى في عرض مفاهيم الإسلام وترسيخ أركان الإيمان.

«... حقاً إن معرفة الله المستنبطة بدلائل (علم الكلام) ليست هي المعرفة الكاملة، ولا تورث الإطمئنان القلبي، في حين أن تلك المعرفة متى ما كانت على نهج القرآن الكريم المعجز، فإنها تصبح معرفة تامة، وتسكب الإطمئنان الكامل في القلب. نسأل الله العلي القدير أن يجعل كل جزء من أجزاء رسائل النور بمثابة مصباح يضيء السبيل القويم النوراني للقرآن الكريم.

وكما أن معرفة الله الناشئة من علم الكلام تبدو ناقصة وقاصرة، فإن المعرفة الناتجة عن طريق التصوف أيضاً ناقصة ومبتورة بالنسبة نفسها أمام المعرفة المستقاة من القرآن الكريم مباشرة من قبل «ورثة الأنبياء». ولقد شبهنا في «كلمات» أخرى من رسائل النور، لبيان الفروق بين الذين يستلهمون نهجهم من القرآن الكريم والذين يسلكون نهج علماء الكلام بمثال:

إنه لأجل الحصول على الماء هناك من يأتي به بوساطة أنابيب من مكان بعيد يحفره في أسفل الجبل، وآخرون يجدون الماء أينما حفروا، ويفجرونه أينما كانوا، فالأول سير في طريق وعر وطويل والماء معرض فيه للإنقطاع والشحة، وهذا هو مسلك علماء الكلام، إذ يثبتون واجب الوجود بإستحالة الدور والتسلسل غير المتناهي للأسباب.

أما منهاج القرآن الحكيم فهو يجد الماء ويفجره في كل مكان وبيسر كامل، فكل آية من آياته الجليلة تفجّر الماء أينما ضربت -كعصا موسى- وتستقرىء:

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

...ثم إن الإيمان لا يحصل بالعلم فحسب، إذ إن هناك لطائف كثيرة للإنسان لها حظها من الإيمان، فكما أن الأكل إذا ما دخل المعدة ينقسم ويتوزع إلى مختلف العروق حسب كل عضو من الأعضاء، كذلك المسائل الإيمانية الآتية عن طريق العلم، إذا مادخلت معدة العقل والفهم، فإن كل لطيفة من لطائف الجسم -كالروح والقلب والسر والنفس وأمثالها- تأخذ حظها منها، وتمصها حسب درجتها. فإن كانت فاقدةً غذاءً لطيفةٍ من اللطائف فالمعرفة إذاً ناقصة مبتورة، وتظل تلك اللطيفة محرومة منها»[1].

لبىّ الأستاذ النورسي نداء ربه الكريم في الخامس والعشرين من رمضان المبارك سنة ١٣٧٩هـ الموافق ٢٣ آذار ١٩٦٠م في مدينة «أورفة» تغمده الله برحمته الواسعة وأسكنه فسيح جناته.

ولكن السلطات العسكرية الحاكمة آنذاك لم تدعه يرتاح حتى في قبره؛ إذ قاموا بنقل رفات هذا العالم الجليل بالطائرة إلى جهة مجهولة، بعد أن أعلنوا منع التجول في مدينة «أورفة» وملؤوها بالجنود المدججين بالسلاح.

---

[1] المسألة الثانية من المبحث الرابع من المكتوب السادس والعشرين من كتاب المكتوبات.

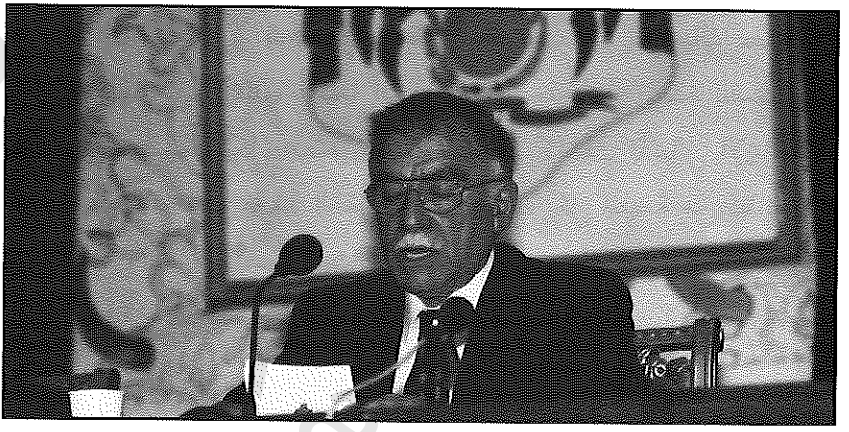

أ. إحسان قاسم الصالحي: يعرض ورقته.

أ. أنور الزعبي: في تعقيبه على ورقة د. حمود عليمات.